- 15 -

ضرب من الجنون، إن لم يكن انتحاراً

تنهد الرقيب جيري سواب، بينما غادرت عربة الهمفي خاصته القاعدة المقفرة التي سكنها منذ أربعة أيام مضت. بلغت الساعة السابعة والنصف صباحاً، وقد كان مزاجه متكدراً للغاية. اضطر الرجل للنوم على غطاء عربته، لعدم وجود ما هو خالٍ من الثكنات. انطلقت سريته في دورية إلى الثانية صباحاً في مدينة الصدر، المنطقة الفقيرة المزدحمة في بغداد، في أحد استعراضات القوة الأمريكية التقليدية. لم يتناول سواب إفطاره المكون من البيض المقلي واللحم؛ بغية الاستمرار في النوم ما أمكنه.

لم تكن المهمة ممتعة، في الحقيقة، صبيحة يوم الأحد ذاك. تعين على سرية سواب مواكبة ثلاث من الشاحنات، عبر مدينة الصدر، بينما كانت تفرغ البرك الممتلئة بمياه الصرف الصحي المتسربة من أنابيب المجاري المهترئة. تم التعاقد مع سائقي الشاحنات من قبل مجلس مدينة بغداد، وقد تعين على الجنود الأمريكيين مرافقتهم؛ منعاً لتلقيهم الرشاوى من السكان؛ بغية إتمام مهمتهم.

لم تكن مراقبة الشاحنات ممتعة على الإطلاق، كما أسلفنا، ولكن القيام بتلك المهمة لم يكن مفاجئاً لسواب. عين الرجل وغيره من الجنود، المنتمين إلى فرقة الفرسان الأولى، عند وصولهم بغداد، في أواخر آذار/ مارس 2004، لأداء ما يتعلق «بحفظ الاستقرار» من المهام. افترض قادة الفرقة، عند وصولهم بغداد، أن حركة التمرد ستكون ضعيفة، وأن الضرورة تقتضي عملهم في مجالي الشرطة والهندسة؛ بغية مساعدة العراقيين على استعادة الخدمات الأساسية، وبناء مؤسسات الحكومة المحلية. عمد ضباط الفرقة، المتمركزة في قاعدة فورت هود، تكساس، قبل نشرهم في العراق، إلى حضور حلقات دراسية لمخططي المدن في أوستن المجاورة، بينما

أرسل الجنود الآخرون إلى مدرسة بريطانية لتدريب عناصر الشرطة المتوجهين إلى إيرلندة الشمالية على التعامل مع النزاعات المدنية المحدودة.

لم تبرز أي من مناطق بغداد التحدي المتمثل في استعادة الخدمات البلدية كما مدينة الصدر، المنطقة البائسة المكتظة بمليونين ونصف المليون من الشيعة، التي تبعد أربعة أميال إلى الشرق من المنطقة الخضراء. مثّل سكان المنطقة -التي كانت تعرف بمدينة صدام، حين كان الطاغية في الحكم- تهديداً حقيقياً في نظر النظام العراقي السابق، الخاضع لهيمنة السنة. عملت حكومة صدام على قمع أشكال المعارضة كافة في أزقة المدينة المتداخلة، وقد عمدت قوات حرسه الجمهوري -في أحد الحوادث الشهيرة في العام 1999 - إلى إطلاق النار على العشرات من المحتجين على اغتيال النظام أحد رجال الدين الشيعة البارزين ونجليه. لم تنفق الحكومة ما يذكر على بناء المدارس أو المستشفيات في المنطقة، ناهيك عن عدم تنظيف أنابيب الصرف الصحي، التي تعادل ثلاثة أقدام في عرضها، منذ العام 1998. كانت الأخيرة قد سدت بما يعادل نسبة 60%، مع قدوم القوات الأمريكية إلى العراق، لتشكل ما هو هائل من المستنقعات القذرة. غدا تنظيف مجاري الصرف الصحي، من ثمّ أولوية قصوى لدى قائد كتيبة الفرسان الأولى في مدينة الصدر، المقدم غاري فوليسكي، بالنظر إلى ما يمكن أن يولده ذلك من نوايا حسنة تجاه القوات الأمريكية.

أوكلت تلك المهمة، في صبيحة الرابع من نيسان/ أبريل 2004، إلى سواب ورجاله. كان الرجل؛ ممتلئ البنية، قصير الشعر، البالغ ثلاثة وثلاثين من العمر، الأكبر سناً والأكثر خبرة من بين جنود سريته. وشم سواب صورة لثلاث جماجم متصلة على رسغه الأيمن، وقد كان يتسكع مع ضباط الصف الأكبر سناً في الكتيبة، ناهيك عن تدخين سجائر المالبورو. أمضى الرجل خمسة عشر عاماً في الجيش، وقد خدم في حرب الخليج الثانية، والبوسنة، ومقدونية.

عمل سواب تحت إمرة الملازم شاين أغيرو، البالغ ثمانية وعشرين من العمر، الذي انضم إلى الجيش بعد التخرج في الثانوية في العام 1994. أمضى أغيرو طويل القامة، نحيل الجسد، والد الطفلين، ثماني سنوات في أخذ الدروس المسائية في

إحدى الكليات القريبة من فورت هود؛ بغية الحصول على شهادة جامعية في العلاقات الدولية والاقتصاد العالمي.

بدا كل شيء طبيعياً لسواب وأغيرو، بينما تحركت السرية عبر مدينة الصدر، تنتقل من بركة موحلة إلى أخرى. حدق الناس بأفرادها، عابسين، ليعمد الأطفال إلى قذف عربة سواب، التي تذيل القافلة، بالحجارة. لم يكترث الرجل، بكل الأحوال، لما أصاب عربته المدرعة منها. عُرضت خريطة على الجنود في فورت هود -قبل إرسالهم إلى العراق؛ بغية توعيتهم بما يمكن أن يواجههم من مخاطر في بغداد- تحدد بواسطة نقط حمراء ما هو حديث من الهجمات، ليقل عددها في مدينة الصدر عن بقية المناطق الأخرى. لم تكد عبوات الطرق الجانبية، التي أرهقت الجنود الأمريكيين في مناطق بغداد الأخرى، تظهر في مدينة الصدر. وقع ما أمكن لسواب استذكاره، من حوادث ذات أهمية، في التاسع من تشرين الأول/ أكتوبر، حين تعرضت إحدى الدوريات لكمين مسلح، وقتل اثنان من الجنود. ارتأى الرجل في مدينة الصدر، بكل الأحوال، مكاناً مناسباً للخدمة العسكرية - إن أمكن للمرء احتمال ما هو كريه من الروائح.

لم يفتقر الأمر إلى العقلانية في نظر سواب. كان الشيعة من قدم الأمريكيون لتحريرهم، وقد كانوا -على النقيض من السنة المهيمنين في عهد صدام- ممتنين لتخليصهم من الدكتاتورية. لم يتمثل التحدي، في نظر الرجل، في الفوز بتأييدهم؛ بل إعادة بناء ما عدّه أكثر المناطق قذارة وبؤساً.

رفض ثلاثة السائقين العراقيين مواصلة العمل، بعد إفراغ حمولة شاحناتهم في إحدى القنوات الواقعة على تخوم مدينة الصدر، عند الرابعة والنصف من بعد الظهيرة على وجه التقريب. أخبر السائقون سواب وأغيرو، بواسطة أحد المترجمين، أن السكان قد عمدوا إلى تحذيرهم، في وقت سابق من اليوم، من العودة برفقة الجنود الأمريكيين. غادر السائقون المكان، بعد أن تحدث أحدهم بذلك الصدد، قائلاً: «سنُقْتَل إن عدنا».

تلقى أغيرو ما هو جديد من الأوامر، حين أخبر مركز العمليات التكتيكية، بواسطة جهاز اللاسلكي، بفرار السائقين. خاطبه أحد معاوني فوليسكي، بذلك الصدد، قائلاً: «اعبروا الطريق دلتا -الشارع الرئيس في المنطقة- في طريق عودتكم إلى القاعدة، للتحقق من وقوع أي من الحوادث هناك». بدا ذلك يسيراً للغاية في نظر أغيرو، واثقاً من بلوغ القاعدة فيما يقل عن نصف الساعة.

تنقلت السرية، المؤلفة من 18 جندياً وأحد المترجمين، في موكب من أربع عربات همفي. استقل أغيرو العربة الأولى لمعرفته بالطريق. أمضى الرجل - على النقيض من بقية المجندين، الذين وصلوا بغداد قبل أربعة أيام لا أكثر - شهراً كاملاً في مدينة الصدر؛ بغية مساعدة فرقة الفرسان الأولى على التحضير لاستلام مسؤولية العاصمة من الفرقة المدرعة الأولى. عملت الشركة المصنعة على تصفيح عربة أغيرو، والأخرى التي يستقلها سواب في المؤخرة، وقد كانت نوافذهما مضادة للرصاص، ناهيك عن صناعة جوانبهما من الحديد الصلب المدعم. حوى سطح كل منهما، علاوة على ذلك، على مدفع رشاش من عيار 12.7 ملم، القادر على إطلاق أعيرة كبيرة الحجم، قوية بما يكفي لعطاب العربات المهاجمة، واختراق الجدران الإسمنتية. لم تزود عربتا الهمفي في المنتصف بغير ما يدعوه الجنود بالدروع الإضافية. انتمت كلتاهما إلى النماذج النظامية، وقد تم تزويدهما بصفائح معدنية في جوانبهما، ناهيك عن مدفعين رشاشين من عيار 7.62 ملم على سطحيهما. تمتعت الأخيرتان بما يفوق العربات الاعتيادية من حماية، وإن افتقر سطح كل منهما، ناهيك عن نافذتيهما الأماميتين ومحركيهما، إلى ما هو إضافي من التحصينات.

لم تتحرك السرية أكثر من بضع دقائق، قبل رؤية رجلين مسلحين ببندقيتين هجوميتين من طراز «إي كي 47» في منتصف الشارع. أمر أغيرو السرية بالتوقف، ليظهر المسلحان ما هو واضح من التحدي لأوامر سلطة الاحتلال الأمريكي، التي تحظر حيازة تلك الأسلحة خارج نطاق الممتلكات الخاصة. أصر الرجلان، فيما بعد، على أنهما يعملان حارسين لأحد المساجد المجاورة. رغب أغيرو في مصادرة البندقيتين، دون الدخول في مواجهة مع القادة الدينيين. توصل الجميع إلى تسوية،

في نهاية المطاف، يعمد أحد عقداء الشرطة العراقيين بموجبها إلى مصادرة البندقيتين. وصل الأخير، ناهيك عن عدد من رجال الدين المعممين، بعد توقف السرية ساعة من الزمن، ليقوم الرجلان بتسليم سلاحيهما. فكر سواب -بينما صعد الجنود عرباتهم، وغادروا المكان- قائلاً لنفسه: «أبعدنا سلاحين إضافيين عن الشارع. نجعل هذا المكان أكثر أمناً».

مثل مكتب مقتدى الصدر أكثر الأبنية أهمية في طريق دلتا. لم يتبوأ الصدر -بدين الجسد، غاضب النظرات، أشعث اللحية- ما هو عالٍ من المراتب ضمن المؤسسة الدينية الشيعية، ليحوز والده الموقر، محمد صادق الصدر، لقب آية الله، ناهيك عن تشييده العديد من المدارس الدينية، والمؤسسات الخدمية الاجتماعية، ورفعه لواء المقاومة ضد حكم صدام. أثار اغتيال الصدر في العام 1999 موجة من الاضطرابات الدموية في المنطقة، التي حملت اسمه فيما بعد. برز مقتدى الصدر، بعد سقوط صدام، مستنداً إلى إرث أبيه، ومتمتعاً بولاء رجال الدين الثائرين؛ الشباب في معظمهم، الساخطين على صمت المرجعية وتحفظها. انتقد الرجل الولايات المتحدة بشدة، محملاً إياها مسؤولية الفشل في دعم الانتفاضة الشيعية بعد حرب العام 1991، ناهيك عن السماح بأعمال النهب بعد الإطاحة بصدام. هاجم الصدر الاحتلال الأمريكي، مطالباً بانسحاب القوات الأمريكية، مما أكسبه كثيراً من المؤيدين، من الشباب المتبطلين في معظمهم، الذين ظنوا أن الاحتلال الأمريكي سيمنحهم الرخاء والسلطة السياسية.

تجسد ما رغبه الصدر حقيقة، بالرغم من خطابه الناري، في الحصول على مقعد في مجلس الحكم. ارتأى الرجل أن أفضل السبل لتحقيق ذلك يكمن في إظهار ما يملكه من مصداقية لجيري بريمر، على الصعيد الشعبي، عبر حشد الآلاف لحضور عظاته أيام الجمع. ندر أن يتوجه موظفو سلطة الائتلاف المؤقتة إلى مدينة الصدر، بكل الأحوال، ليجهلوا ما بلغه الرجل من شعبية. لم يرغب المجلس الأعلى للثورة الإسلامية والدعوة، أكبر الأحزاب الشيعية، في ظهور من ينافسهما في المجلس. عمد الصدر، في آب/ أغسطس 2003، بعد شهر من تأسيس مجلس الحكم، إلى

تشكيل الميليشيا المعروفة بجيش المهدي؛ بغية حماية نفسه، والبروز ضمن القادة الشيعة الآخرين. بلغ عدد أفرادها، بعد مضي ستة أشهر، ووصول فرقة الفرسان الأولى إلى بغداد، ما يقدر بعشرة آلاف مقاتل عبر البلاد.

عمل أفراد جيش المهدي على مضايقة مسؤولي الحكومة في مدينة الصدر وبلدات جنوب العراق، لتمتنع الميليشيا، فيما خلا عدداً من الحوادث الفردية، عن استهداف القوات الأمريكية. عُدّ جيش المهدي داخل القصر الجمهوري، بكل الأحوال، بمثابة خطر داهم يتهدد إقامة الديموقراطية في العراق، يمكن -حال تجاهله- أن يوظف لإرهاب الناخبين وعمال الحكومة. بدأ أعضاء فريق الحكم التابع للسلطة، بحلول أواخر العام 2003، في دفع بريمر إلى اعتقال الصدر، وحل ميليشيته. عارض القادة العسكريون الأمريكيون ورمسفيلد الفكرة، بكل الأحوال، حين أثارها بريمر، قائلين: «لا يطلق الصدر النار على جنودنا، فلِمَ نثير النزاع معه؟ نواجه ما يكفي من المتاعب مع الراديكاليين السنة، ولا حاجة لنا باستثارة نظرائهم الشيعة».

تراجع بريمر، من ثمّ لتثير ميليشيا الصدر انتباهه مجدداً، في أواخر آذار/ مارس 2004. كان الدستور المؤقت قد أنجز، بحلول تلك المرحلة، ناهيك عن التوجه نحو تسليم السيادة في غضون ثلاثة أشهر من حينه. شعر الرجل بقلة ما يملكه من وقت، وضرورة حل الميليشيات كافة، إن أُريد للديموقراطية الازدهار في العراق. انكب دايفيد غومبيرت على صياغة خطة للتعامل مع قوات البشمركة وفيلق بدر، ليفتقر الصدر إلى النية لحل جيش المهدي. كان الوقت قد حان، من ثمّ في نظر بريمر وغيره من مسؤولي السلطة لمواجهة الرجل.

أصدر بريمر أوامره، قبل أسبوع على وجه التحديد من مهمة سواب وأغيرو، بإغلاق صحيفة مقتدى الصدر. ما انفكت «الحوزة»، طيلة أسابيع، تنشر ما يفتقر إلى الدقة من المقالات التحريضية عن الجيش الأمريكي وسلطة الائتلاف المؤقتة. بلغ الأمر حده، في نظر بريمر، في شباط/ فبراير، عند نشر مقال، بعنوان: «بريمر على خطى صدام»، يتهمه بتجويع الشعب العراقي بصورة متعمدة. عمدت القوات الأمريكية، في الثامن والعشرين من آذار/ مارس، إلى طرد موظفي الحوزة إلى الشارع، قبل إغلاق مكتبها.

لـم يكن من شأن ذلـك، في نظر بريمر، ممارسة الضغـوط على الصدر فحسب، بـل الجنرال جون أبي زيد، قائد القيادة المركزية الوسطى، والجنرال سانشيز، قائد القـوات الأمريكية في العراق. افترض بريمـر وطاقمه أن الصدر سيرد عبر ممارسة الاحتجاجات وشن الهجمات الصغيرة، بما يثير ما يمكن السيطرة عليه من النزاعات، ويرغم أبا زيد وسانشيز على إخراج رجل الدين من اللعبة.

فـاق رد الصدر، بـكل الأحوال، توقعات بريمر وطاقمه. أمـر مساعدو رجل الدين الشـاب -في غضون ساعات- بنزول الجماهير إلى الشارع، ليملأ المحتجون الساحة الواقعـة أمام مكتب الصحيفة، قبل العودة مجدداً في اليوم الثاني. زحف المئات من مؤيـدي الصدر، في اليوم الثالث، في مسيرة شبه عسكريـة إلى بوابة السفاح، بينما هتفوا قائلين: «نحن أتباع الصدر، كل العالم يعرفنا، هيهات منا الذلة». اتشح العديد من الشبان بالسواد، يضعون عصائب خضراء على رؤوسهم. تراكض المشرفون على المسيرة بمحاذاة المشاركيـن، يطالبونهم، صارخين، برص الصفوف. اندفع رجال الدين، بعمائمهم البيضاء، في المسيرة، علاوة على ذلك، ليهتفوا قائلين: «قل الكلمة فحسـب، مقتدى، لنواصل ثورة العشرين». ازدادت الصيحات حدة، فيما بعد، ليحذر المشاركون قائلين: «هي سلمية اليوم، وستصبح عسكرية غداً».

لـم تتوقف الحياة فـي مدينة الصدر، كمـا بدت الحال عليه، بينمـا شلت مناطق أخرى في بغداد جراء حركة الاحتجاجات. لم يحفل طريق دلتا -المزدحم في العادة، بـكل الأحوال -بكثيرٍ من الحركة المرورية، في الرابع من نيسان/ أبريل، بينما كانت السرية تتجاوز مكتب الصدر، ناهيك عن خلو الأرصفة من المشاة.

كانت قـوات العمليات الخاصة الأمريكية قد اعتقلـت كبير مساعدي الصدر، من دون علـم سواب وأغيرو، فـي الليلة السابقة. أصدر الصدر، في الرابعة والنصف من بعـد الظهيـرة، أمراً إلى أتباعـه، من مقره في الكوفة، على بعد مـا يقارب مئة الميل جنـوب العاصمة، قائـلاً: «أرهبوا أعداءكـم. سيجزيكم الله كثيـراً مقابل ما تفعلون لإرضائه. لا يمكننا البقاء صامتين حيال انتهاكاتهم».

رأى أغيـرو، بينمـا كانـت السرية تقتـرب من مكتـب الصدر، مقر حـزب البعث السابـق المكون من طابق واحد، ما يزيد عن مئة شاب عند مدخله، ليتفرقوا جميعاً، منطلقيـن بعرباتهم، عند رؤية عربات الهمفي، ما خلا الخمسة عشر منهم على وجه التقريب. طالب أغيرو الاختصاصي جيمس فيسك، الجالس خلفه، بتسجيل الواقعة، ليعمد الأخير إلى فتح كراسه أخضر اللون، وتدوين التوقيت في حينه: الخامسة وست وثلاثون مساء.

سمـع الجنود داخل عربة سـواب، بينما كانت على بعد ما يقـارب مئتي المتر من مكتب الصدر، ما بدا صوت إطلاق نيران.

صـرخ الاختصاصـي جوشـ روجـرز، فـي تلك اللحظـة، قائـلاً: «ما كان ذلك؟».

تساءل الرقيب إريك بوركوين قائلاً: «أكان إطلاقاً نارياً؟».

صرخ سواب، بالنتيجة، قائلاً: «أوقفوا العربة!».

انطلقـت النيران من الطرف المحاذي للسائق، ليقفز الجنود خارج عربة الهمفي، ويتخـذوا مواقع قتالية عند طرفها الآخر، موجهين بنادقهم الآلية، من طراز «إم 16»، نحـو أسطـح الأبنية المجاورة. تبـوأ الرقيب شاين كولمان، الـذي كان يرتدي منظاراً عسكريـاً أصفر اللـون، سطح العربة؛ بغية توجيه مدفعهـا الرشاش. لم يتمكن الرجل من تحديد مصدر النيران بصورة دقيقة، ليشعر، جازماً، أنها كانت تنطلق من بضعة أبنيـة محاذيـة إلى الشمال، ويعمد إلى توجيه مدفعه فـي ذلك الاتجاه، قبل إطلاق ما يصم الآذان من الرصاص. شارك الآخرون في القتال بواسطة بنادقهم الآلية، قبل أن تظهر مجموعة جديدة من المسلحين، وتطلق النار على العربة من الجهة المقابلة.

صرخ سواب في رجاله، قائلاً: «اصعدوا العربة! لنغادر هذا المكان!».

أصابت إحدى القذائف باب العربة، ما إن أغلقه بوركوين. أمكن لذلك، في الأحوال الاعتياديـة، أن يـؤدي إلى مقتله، وعدد من الآخرين فـي العربة، على وجه الاحتمال، ولكـن القذيفـة افتقرت إلى ما هو خـارق للدروع من الرؤوس. جهـل بوركوين ما كان يحصل على وجه التحديد، ليظن أنه ميت لا محالة.

أدرك سواب، ما إن انطلقت عربته، واقتربت من الثلاث الأخرى التي تتقدمها، أن ما كان يحيط بهم من خطر قد تلاشى. فوجئ الجميع، مع ذلك، بإغلاق الطريق دلتا، الذي كان سالكاً قبل بضع ساعات، بواسطة علب الصفيح، والقضبان الحديدية، والكتل الصخرية. لم يعمد السكان، علاوة على ذلك، إلى سد الطريق بواسطة الثلاجات، ومحاور العربات، والخزائن الخشبية فحسب، بل وأكشاك الأرصفة بأكملها، ناهيك عن حرق الإطارات وأكوام النفايات، مما أسهم في حجب الرؤية لمئات عدة من الأقدام.

تواصل إطلاق النار مجدداً، ما إن بلغ الجنود أكوام الركام. لم يقتصر الأمر، في تلك المرة، على عدد من القناصين، لتنهمر صليات القذائف الصاروخية والنيران من المباني الممتدة عبر الطريق كافة، على وجه التقريب. شعر سواب، في تلك اللحظة، بأن سكان المدينة بأكملهم يشاركون في المعركة. توصل سواب وأغيرو إلى الاستنتاج ذاته، بالرغم من اختلاف موقعهما في القافلة: استحالة هزيمة المهاجمين، وضرورة مغادرة السرية على الفور.

جسدت تلك أولى المعارك لأفراد السرية كافة، على وجه التقريب، وقد ماثل الأمر، للحظات، ما يجري في ألعاب الفيديو. أخطأت معظم القذائف الصاروخية العربات، لتسبب ما هو مدوٍّ من الانفجارات. ارتدت الأعيرة النارية عن دروع العربات كما الحجارة، لتتملك الحماسة الاختصاصي فيسك، الجالس خلف أغيرو، لمشاركته، في نهاية المطاف، «فيما يدفع له من أجر للقيام به».

تلاشت حماسة الرجل، بكل الأحوال، بعد مضي بضع ثوانٍ. سقط الرقيب شين، المسؤول عن توجيه المدفع الرشاش، في برج العربة، ما إن عبرت التقاطع الثاني. اخترقت إحدى الرصاصات صدره، من جانب جسده، بما يكاد يعلو سترته الواقية. فقد شين -البالغ واحداً وثلاثين من العمر، المنتمي إلى جزيرة سايبان الباسيفيكية- الوعي بصورة مباشرة، على وجه التقريب، وأخذ ينزف من فمه. حاول فيسك معرفة مكان إصابته، دون أن يعثر على أي من الجروح. سعى الرجل، علاوة على ذلك، إلى تفحص نبض شين، قبل أن يدفعه إلى حجر الراكب الآخر في مؤخر

العربـة – المترجم العراقي سلام، المؤهل فيما يتعلـق بالإسعافات الأولية – ويصعد إلى برج العربة لتوجيه المدفع الرشاش.

صرخ الاختصاصي جوناثان ريدل، سائق العربة، بينما كان يحاول تجاوز العوائق في الطريق، قائلاً: «لِمَ لا نزال هنا؟، نحتاج مغادرة هذا المكان».

صرخ أغيرو، عبر جهاز اللاسلكي، قائلاً: «نتعرض لهجوم، نتعرض لهجوم».

عجـز ريـدل وأغيرو، بالنظـر إلى تحطم كل مـن مرايا الرؤيـة الخلفية في عربة الهمفي، عن تحديد المسافـة التي تبعد بها العربات الثلاث الأخرى. حاول الرجلان سـؤال فيسـك، فيما يتعلق بذلك الصـدد، ليعجز عن سماعهما فـي خضم الضجيج الناتـج عـن المدفـع الرشاش. طالب أغيـرو ريدل بالتوقـف، قبل أن يفتحـا بابيهما لاختلاسـ نظرة سريعة. نظر أغيرو إلى الخلف، بينما كان الرصاص يصيب بابه من الجهة الداخلية، ليكتشف عدم وجود أي من العربات الأخرى.

خاطب الرجل ريدل، بعد ذلك قائلاً: «يتعين عليك الاستدارة».

نظـر إليه ريدل، عاجزاً عن التصديق، وكأن لسان حاله يقول: «تريد مني العودة؟ إن هـذا لجنون مطبـق». مثل ذلك أمراً، بـكل الأحوال، ليعمد الرجـل إلى الانعطاف نحـو اليسـار بزاوية كبيـرة، قبل نزول رصيـف المشاة، وتحطيم الأكشـاك الخشبية المستخدمـة لبيـع الخضـراوات. وطئـت العربة، فيما بعـد، مجموعة مـن الأسلاك الشائكة، على بعد كتلة سكنية واحدة. لم ينوِ أغيرو انتظار ريدل حتى تخليص العربة منها، ليقفز إلى الخارج، راكضاً نحو العربات الثلاث الأخرى.

صـرخ أغيرو في الرقيب الأول تريفور دايفيس، سائـق العربة الثانية، مطالباً إياه بالانطلاق.

عقـب دايفيس قائلاً بتوقف عربتـه عن الحركة، قبل أن يعمد إلى تشغيل المحرك مجـدداً؛ بغية التأكيد على ذلك، لتنبعث سحابة ضخمة من الدخان الأسود من غطاء العربـة. تعرضت العربة التي تليهـا للمشكلة ذاتها: أصيبت العربتـان الثانية والثالثة بكثيرٍ من الأعيرة النارية، ناهيك عن مرورهما فوق كثير من الركام.

أخذ الرقيب جستين بيلامي، البالغ اثنين وعشرين من العمر، المنتمي إلى وارسو، إنديانا، يستعد لأسوأ الاحتمالات، بينما كان جالساً في عربة الهمفي الثالثة. فكر الرجل، بذلك الصدد، قائلاً لنفسه: «ها هي النهاية، ليس إلا. سنموت لا محالة».

فكر أغيرو في جمع الرجال التسعة عشر في عربتي الهمفي العاملتين، ليكتشف عدم وجود ما يكفي من حيز للقيام بذلك. استنتج الرجل، من ثمّ أن قيادة عربتين محملتين بالرجال على غطاءيهما وسطحيهما يمثل انتحاراً حقيقياً. تعين عليهم الخروج من الشارع، والاحتماء في مكان ما. لجأ سواب إلى جهاز اللاسلكي لطلب التوجيه من مركز العمليات التكتيكية، الذي سمح بترك العربتين المتوقفتين.

طالب أغيرو نصف أفراد السرية، بينما كان الرصاص يتطاير في الهواء، بتجريد العربتين من أجهزة اللاسلكي وأنظمة الأسلحة. انطلق بقية الجنود سريعاً، بواسطة عربتي الهمفي الأخريين، لعبور أقرب ما صادفوه من أزقة. حدد الأخيرون، بعد ما يقارب مئة المتر، مبنى مؤلفاً من ثلاثة طوابق، يبرز فوق ما يقل عنه بطابق واحد من المباني. ارتأى أغيرو في ذلك ميزة تكتيكية واضحة، ليأمر الجنود بالتجمع داخل المبنى المرتفع. عمد الرقيب الأول دارسي روبينسون إلى تحطيم قفل البوابة بواسطة مسدسه، قبل أن يتبعه ستة رجال إلى الداخل. قام الأخيرون بتجميع ساكني المبنى في إحدى الغرف، قبل تخصيص أخرى للمصابين من الجنود، حيث نقل جسد شين، الخالي من الحياة، إلى جانب الرقيب الأول ستانلي هوبرت، الذي أصيب بإحدى الشظايا، ونزف الدماء من فمه. تم تجميع المدافع الآلية، المأخوذة من العربتين المتوقفتين، على سطح المبنى، حيث أقام نصف أفراد السرية مواقع دفاعية. بقي الآخرون في الزقاق، متحصنين بواسطة عربتي الهمفي العاملتين، بينما كانوا يتولون مهمة التصدي لأي هجوم أرضي.

تجمع المهاجمون، بعد وقت قصير، عند طرفي الزقاق، يطلقون الرصاص وقذائف «الآر بي جي» بكثافة على عربتي الهمفي. فتح الجنود بدورهم نيران مدافعهم الرشاشة، ليسقطوا العشرات من المهاجمين. ارتأى سواب في ذلك تصرفاً غبياً من قبلهم. حاولت مجموعة أخرى من المسلحين الاقتراب من أسطح المباني المجاورة، لتفعل المدافع الرشاشة فعلها ثانية.

بـدأ المهاجمون في تغييـر تكتيكاتهم، بعد استمرار الوضـع على حاله. تم إرسال الأطفال إلى الزقاق لإرشاد القناصين إلى الأهداف، بينما ألقيت القنابل اليدوية من الشوارع المجاورة. ارتطمت إحداها بخوذة أغيرو قبل ارتدادها إلى الجدار، لتصيب شظاياهـا أحـد جانبي جسده، من أذنه إلى قدمه. اتجـه الرجل، بعد ذلك إلى غرفة المصابين، يعرج في مسيره.

بقـي سواب، في تلك الأثناء، في عربة الهمفي خاصته، يتولى الاتصال عبر جهاز اللاسلكي الثابت. لم يدر بخلد أحد منهم، حين غادروا القاعدة صبيحة ذلك اليوم، أنهم سيكونون بحاجة إلى مثل ذلك الجهاز.

تولـى المقدم فوليسكي بصورة رسمية، بالعودة إلى القاعدة، قيادة منطقة مدينة الصدر مـن الفرقة المدرعة الأولى في السادسة مساء. خطط الرجل لإقامة مراسم احتفالية؛ بغية رفع علم كتيبته. عمل فوليسكي على تأجيل الاحتفال وطلب التعزيزات، بحلـول السادسـة والربع، حيـن كان سواب وأغيـرو يبحثان عن مـكان للاحتماء في الزقـاق. غادرت قوتـان للتدخل السريـع - تتألف كل منهما من عشـر عربات قتالية مدرعـة مـن طـراز برادلي، التـي كان فوليسكـي يشغـل إحداها - قاعـدة العمليات الأمامية، في غضون عشرين دقيقة، متجهة نحو طريق دلتا.

تعيـن على سواب تحديد موقع السرية، مع قدوم النجـدة في الطريق، ليعجز عن تعييـن موقع الزقاق علـى الخريطة. عمد الرقيبان روبينسـون وبوركوين، الموجودان علـى السطـح، إلى إطلاق قنابل دخانيـة؛ بغية لفت انتباه طائرتـي الهليكوبتر اللتين تحومان فوقهما، ليحجب الدخان المتصاعد من الإطارات المحترقة إشارتهما.

تعرضـت قوتا التدخـل السريع للمتاعب بعد دقائق مـن مغادرتهما القاعدة. تمت محاصـرة إحدى الوحدات من قبل المئات من المهاجمين على امتداد طريق سيلفر، الشـارع المعامد لطريق دلتا. قتل أربعة من جنود القـوة في أثناء القتال، ناهيك عن إصابـة ما يزيد علـى العشرة، مما أرغم الوحدة على العـودة من حيث أتت. تعرضت قـوة التدخل السريـع الأخرى، التي تضـم فوليسكي، إلى أحد الكمائـن مع محاولتها

الاقتراب من طريق دلتا، مما أرغمها على التراجع، والاقتراب من طريق آخر. جهلت الوحـدة، في نهاية المطاف -عند وصولها طريق دلتا، حيث اصطف المهاجمون على امتداد ميلين من الشارع- موقع وجود السرية.

شهـد سواب، مـن موقعه في عربة الهمفي، عربات فرقة التدخـل السريع تتجه إلى طريـق دلتا، قبـل أن تغير مسارهـا؛ بغية تجاوز الكميـن. حاول الرجـل الاتصال بها، لتشغل القناة من قبل نداءات الاستغاثة الموجهة من فرقة التدخل الأخرى. رغب سواب -علاوة على ذلك- في لفت انتباههم عبر الصراخ عالياً، ليدرك عبثية القيام بذلك.

تحـدث الاختصاصي فيسك، بما لا يخلو من السخريـة، بينما كان يتابع انسحاب عربـات البرادلي، قائـلاً: «كان من شأن عناصر قاعدة العمليـات الأمامية أن يفعلوا المستحيل للحلول مكاننا». تساءل الجنود، في قاعدة فورت هود، عما إذا كانوا مؤهلين للحصول على شارات الانتساب إلى فرق المشاة القتالية في الجيش. تطلب الحصول علـى إحداها المشاركة في عـدد من العمليات القتالية. التفت ريـدل إلى زملائه في السرية، بعد صد الموجة الأولى من المهاجمين، قائلاً: «أعتقد أننا حصلنا عليها».

استدعيـت مدرعـات الجيش الثقيلة، مع فشل الفرقتين فـي إنقاذ السرية: سبع دبابات قتالية، من طراز «إم 1 إي 2 آبرامز»، تتبع الفرقة الصليبية الأولى المدرعة. بلـغ وزن الواحدة منها ثمانية وستين طناً، وقـد كانت مزودة بمحرك نفاث، ومدفع رئيـس مـن عيـار 120 ملم، ناهيك عـن تحصينها ضـد نيران الأسلحـة الصغيرة وقذائـف الآر بي جي. لم يكن ذلك يتنافى، بـكل الأحوال، مع الضرورة المتمثلة في معرفة مكان السرية.

بدأ اليأس يتسلل إلى روبينسون وبوركوين، الموجودين على السطح. بلغت الساعة التاسعـة مساء، وقد حل الظلام في حينه، ناهيـك عن وقوعهما تحت الحصار ثلاث ساعـات تقريباً. نفدت القنابل الدخانية من الرجلين، ولم تكن حال الذخيرة بأفضل منهـا. أضحى اللوح البرتقالـي العاكس، الذي عمدا إلى تركيبـه على السطح، عديم الفائـدة بالنظر إلـى مغيب الشمس. حاول الرجلان إضـرام النيران فيما وجداه من

أحذية بالية، ليعوز السطوع لهيبها. توجه روبينسون إلى بوركوين، في نهاية المطاف، قبل تمزيق كمي بزة الأخير العسكرية، مطالباً إياه بفعل الشيء ذاته. عمد الرجلان، فيما بعد، إلى إشعال أكمام بزتيهما، لتتمكن المروحيتان من تحديد موقعهما.

تمثلت المشكلة القائمة، مع ذلك، في نقل المعلومات إلى الدبابات. رأى سواب -الموجود في الزقاق- الدبابات مندفعة على الطريق. فكر الرجل، في حينه، قائلاً لنفسه: «تباً، سيخطئون في تحديد موقعنا. سنظل هنا طيلة الليل».

تلقت الدبابة السابعة طلباً من المروحيتين بالتوقف عند مدخل الزقاق، ليستدعي طاقمها الدبابات الأخرى، قبل تحميل عناصر السرية كافة، وإعادتهم إلى القاعدة.

عمل فوليسكي، في وقت متأخر من تلك الليلة، على إحصاء خسائره: ثمانية جنود قتلى - بمن فيهم كايسي شيهان، التي أضحت والدتها، سيندي، فيما بعد، ناشطة بارزة ضد الحرب - وخمسون جريحاً على أقل تقدير. قدر الرجل مشاركة ما يزيد على أربعة الآلاف من عناصر الميليشيات العراقيين في الانتفاضة.

تساءل فوليسكي، بينما كان جالساً في مركز العمليات، عما حدث من أخطاء. لم يعترِ الشك الرجل في انتماء المهاجمين إلى جيش المهدي التابع للصدر، وإن فاقوا في قوتهم وتسليحهم ما أشارت إليه تقاريره الاستخبارية. فكر فوليسكي، بعد ذلك، قائلاً لنفسه: «لِمَ لم يتوافر ما هو أفضل من المعلومات عن أولئك الرجال؟. مضينا في ذلك بلا خطة تذكر، ونواجه الآن مشكلة كبيرة».

جسدت الأزمة، على مدار بضعة الأيام اللاحقة، ما هو أكبر من تهديد في نظر الجنرالات الذين يديرون العمليات العسكرية في العراق. لم يكتفِ رجال ميليشيا الصدر بالاستيلاء على كل من مراكز الشرطة والمباني الحكومية في مدينة الصدر فحسب، بل عمدوا إلى إطلاق ما هو عنيف من الثورات في وسط وجنوب العراق الخاضعين للهيمنة الشيعية. خضعت مدن النجف، والكوفة، والكوت، وكربلاء لسيطرتهم المطلقة، ناهيك عن تمكنهم، في ساعات، من اكتساح الوحدة العسكرية متعددة الجنسيات، بقيادة القوات البولندية، الموكلة بإدارة تلك المنطقة من

قبل البنتاغون. استعرض رجال الميليشيا المتشحون بالسواد، بما لا يخلو من تيه واختيال، قوتهم أمام المقام الشيعي ذي القبة المذهبة، ناهيك عن إقامة نقاط التفتيش والحواجز، معلنين سيطرتهم على المنطقة.

وجد الجيش الأمريكي نفسه في مواجهة ما سعى كبار القادة العسكريين، منذ بدء الحرب، إلى تجنبه من حروب المدن الخطرة، ناهيك عن تعدد الخصوم الذين يجابههم في سوح القتال: التمرد السني الدموي، إلى الشمال والغرب من العاصمة، الذي عجزت القوات الأمريكية عن قمعه طيلة أشهر، علاوة على الثورة الشيعية في جنوب البلاد وشرقها. عزلت العاصمة، في حينه، بصورة تامة، بما يفوق مرحلة الاجتياح قبل عام من الزمن. ظُلّلت كل من الطرق الرئيسة خارج بغداد باللون الأحمر، بما يعني حظر اتباعها وفق تقرير المخاطر العسكري اليومي.

لم يقصر جيش المهدي هجماته على القوات الأمريكية، ليعمد إلى مهاجمة مراكز الشرطة العراقية في مدينة الصدر. لاذ ضباط الشرطة بالفرار، بعد أخذ حاجياتهم، حين تجمع رجال الميليشيا عند مركز شرطة الرافدين.

خاطبني الرقيب فلاح حسن -ضابط الشرطة طويل القامة، نحيل الجسد، الذي تألف زيه الرسمي من سروال مثني من الجينز، وقميص أزرق مجعد- في وقت لاحق، بذلك الصدد، قائلاً: «لم يمثل إطلاق النار عليهم أمراً صائباً. إن قاتل الرجل دفاعاً عن مبادئه، وكنتُ مقتنعاً بتلك المبادئ، فلن أطلق النار عليه».

أذهل انهيار وحدات الشرطة والدفاع المدني عبر العراق -أمام انتفاضة الصدر- مسؤولي سلطة الائتلاف المؤقتة، ليفاجأ الأخيرون مجدداً، بعد بضعة أيام، بتمرد إحدى كتائب الجيش العراقي الجديد، عوضاً عن إطاعة الأوامر بمساعدة قوات المارينز في القتال ضد المتمردين في شوارع الفلوجة. كشفت كلتا الحادثتين عن مشكلات جوهرية في إستراتيجية سلطة الائتلاف المؤقتة لبناء قوات الشرطة العراقية، وتأسيس جيش جديد، بعد قرار بريمر المشؤوم بحل الجيش السابق. هدف القرار بإعادة توظيف ما أمكن من ضباط الشرطة السابقين، دون تدريبهم، إلى

طمأنة العراقيين أيضاً عبر زيادة عدد الضباط العاملين في الشارع. أسهم ذلك القرار، بكل الأحوال، من جهة أخرى، في استخدام الآلاف من الرجال غير المؤهلين، الذين يرتبط بعضهم بحركة التمرد، مما جسد ما خشيه مسؤولو السلطة، منذ زمن طويل، من المشكلات، وعجزوا عن إدراكه على أكمل وجه إلى اندلاع ثورة الصدر. تجاوز عدد رجال الشرطة المفتقرين إلى التدريب، إبان ثورة الصدر، الخمسة والستين ألف شرطي، من بين ما يقارب التسعين ألفاً بالمجمل.

تمثلت الخطيئة الكبرى الأخرى، بحسب المسؤولين العراقيين والأمريكيين، في العجز عن توفير المعدات الكافية لرجال الشرطة، وفيلق الدفاع المدني، الذي يمثل قوة شبه عسكرية، يبلغ عدد أفرادها الأربعين ألفاً. لم يملك السلاح، على سبيل المثال، في مركز شرطة الرافدين، سوى نصف عدد ضباطه البالغ 140، ناهيك عن افتقاره إلى ما يزيد عن عشر البنادق الهجومية، من طراز «إي كي 47»، وثلاث من عربات الشرطة، وجهازين لاسلكيين في غرفة التحكم. افتقر الجميع، علاوة على ذلك، إلى الدروع الواقية، باستثناء عدد من حراس المدخل الأمامي، الذين ارتدوا سترات الجيش الأمريكي الواقية.

لم تتجسد المشكلة -فيما يتعلق بالجيش العراقي- في الافتقار إلى التدريب أو المعدات الكافية، بل الروح الجماعية. أوكل بريمر ومستشاره الأمني الأول، والتر سلوكومب، مهمة تدريب المجندين الجدد إلى أحد المتعهدين، ليُعمد إلى تعيينهم، عقب التخرج من معسكر التدريب الخاضع لإدارته، ضمن وحدات الجيش الأمريكي، بقيادة من لم يلتقوا في السابق من الضباط الأمريكيين. افتقرت العلاقة بين الأخيرين والجنود العراقيين الجدد، حين كانوا يأمرونهم بالقتال، إلى ما يكفي من المودة، والثقة، والمبررات لمخاطرة العراقيين بحياتهم من أجل جيش أجنبي. اعتادت القوات الخاصة الأمريكية، في الدول الأخرى -بما لا يفتقر إلى النجاح- تدريب الوحدات العسكرية والانتشار برفقتها، ليقل عدد الجنود الأمريكيين المطلوبين لأداء تلك المهمة في العراق.

تحدث الرائد رائد كاظم، كبير الضباط في مركز الرافدين، بذلك الصدد، قائلاً: «أساء الأمريكيون فهمنا. سنقاتل من أجل العراق، لا من أجلهم».

جسدت خطوة بريمر، المتمثلة في إغلاق الصحيفة، خطأ كبيراً في الحسابات. افتقر الرجل، حين أمر بإغلاق «الحوزة»، إلى إستراتيجية شاملة للعمل العسكري في حال قرر الصدر وميليشيا التابعة له القتال. لم يتم تحذير الجنود، سابقاً، في معاقل الصدر القوية، كمدينة الصدر على سبيل المثال، ناهيك عن غياب التنسيق مع قادة الجيش البارزين. استغرقت محاولات الجيش الأمريكي، لاستعادة السيطرة على المناطق التي احتلها جيش المهدي، شهرين من القتال الضاري، بما يفوق ما خبرته القوات الأمريكية طيلة عام الاحتلال الأول، ومرحلة الاجتياح ذاتها.

اتخذ بريمر القرار بملاحقة الصدر في الوقت الذي عمَّ فيه التوتر الفلوجة، المدينة الخاضعة لهيمنة السنة، إلى الغرب من بغداد. قتلت قوات المارينز الأمريكية خمسة عشر عراقياً، قبل يومين من إغلاق الصحيفة، في أثناء إحدى الغارات، ليقتل أربعة من المتعهدين الأمنيين الأمريكيين، في وقت لاحق من الأسبوع ذاته، في الحادي والثلاثين من آذار/ مارس، على أيدي الجموع الغاضبة، قبل أن تعمد إلى التمثيل بجثثهم، وتعليقها على جسر فوق نهر الفرات.

تعهد بريمر، بالنتيجة، بألا يمر مقتل المتعهدين «من دون عقاب» ليختلف الأمريكيون، إلى حد كبير، عن كيفية الرد. رغبت قوات المارينز في الانتظار حتى التمكن من تحديد الفاعلين، وشن عمليات لاعتقالهم. خاطبني الجنرال جايمس كونوي، القائد الأعلى لقوات المارينز في العراق، بذلك الصدد، في وقت لاحق، قائلاً: «شعرنا بضرورة تهدئة الموقف، على الأرجح، قبل أن نظهر مثل مَن يهاجم بدافع الانتقام». نقل كونوي موقفه إلى رئيسه الجنرال سانشيز، الذي نقله بدوره، عبر تسلسل القيادة، إلى الجنرال ريتشارد مايرز، رئيس هيئة الأركان المشتركة، قبل أن يعمد الأخير إلى إطلاع رمسفيلد على فحواه.

طغت رغبة الانتقام في واشنطن بكل الأحوال. توجه رمسفيلد والجنرال أبي زيد، في الأول من نيسان/ أبريل، اليوم الذي أعقب الهجوم، إلى البيت الأبيض للتباحث في كيفية الرد مع الرئيس بوش وفريق أمنه القومي. لم يطلع رمسفيلد الرئيس على موقف كونوي، ليعمد -عوضاً عن ذلك- إلى تقديم خطة لشن «هجوم محدد كاسح» بغية السيطرة على الفلوجة، قبل أن يقرها بوش على الفور.

أُخبر سانشيز كونوي ومساعدوه، في وقت لاحق، أن الرئيس «يعلم ما سيتسم به الهجوم من دموية، ويقبل ذلك». تحدث أحد مسؤولي البيت الأبيض المشاركين في النقاش في ذلك اليوم، بكل الأحوال، قائلاً: إن رمسفيلد قال إن: «بمقدورهم شن الهجوم على الفلوجة مع ما هو ضئيل من الاحتمالات، بصورة نسبية، لسقوط خسائر بين صفوف المدنيين».

تجمع ألفان من عناصر المارينز على تخوم الفلوجة، في الرابع من نيسان/ أبريل، يوم تعرض سرية سواب للهجوم في مدينة الصدر، ليبدؤوا الهجوم عليها، في اليوم الثاني، ويلقوا ما هو ضار من المقاومة. عمد المتمردون المتحصنون في المنازل والمساجد إلى إطلاق النيران والقذائف الصاروخية على عناصر المارينز، ليقتلوا خمسة منهم، في اليوم الأول للهجوم، الذي شهد سقوط عدد غير محدد من المتمردين والمدنيين على حد سواء. لجأ المتمردون، في اليوم الثاني، إلى استخدام المدافع المضادة للطائرات؛ بغية إسقاط المروحيات الأمريكية. تمثل رد الأمريكيين، من ثمّ، في إطلاق وابل من القنابل، وقذائف الهاون، والأعيرة النارية، ليقتلوا المزيد من المتمردين والمدنيين. أحاط الغموض بعدد المدنيين الذين سقطوا جراء الهجوم، ليفتقر ذلك إلى الأهمية بكل الأحوال. عملت الجزيرة وغيرها من محطات التلفزة العربية على بث تقارير مروعة عن سقوط أعداد هائلة من المدنيين في الفلوجة.

اعتقد رمسفيلد، وغيره من مؤيدي الهجوم الواسع، أن التهديد باستخدام القوة سيدفع سكان المدينة إلى تسليم قتلة المتعهدين، ليتم استهداف المتمردين، حال سقوط ذلك الخيار، بواسطة «القنابل الذكية»، وغيرها من الأسلحة، في عمليات «جراحية» دقيقة. التف العديد من السكان حول المتمردين، بكل الأحوال، عوضاً

عـن القيـام بتسليمهـم. لم يقتصـر ذلك على الفلوجـة فحسب، ليعمـد النـاس في المـدن الأخرى، بمن فيهم الشيعة، إلى التبـرع بدمائهم وأموالهم، بينما بدأ السنة في الفلوجة، وغيرها من المدن الخاضعة لهيمنتهم في وسط العراق - الذين عدوا الصدر -في السابق- مثيراً للمتاعب - في تمجيد بطولته. استمد كل من الطرفين، بالمحصلة، القوة من الآخر.

تعرضـت مدينـة الزمرد، بعد ذلك، إلـى ما يشبه الإغلاق التـام. منع فريق «قوة الحمايـة» موظفـي السلطة من مغادرة المنطقـة الخضراء، بغضـ النظر عن أهمية حاجاتهـم. توقـف المتعهدون، عـلاوة على ذلك، عـن التوجه إلى مواقـع مشروعات الإعمار، لتشل حركتها بالكامل.

أخذ موظفو السلطة يهيمون حول القصر، يعتريهم القلق. لم يكن لديهم كثيرٌ من الوقت لإضاعته، بالنظر إلى اقتراب موعد تسليم السيادة، عقب ثلاثة أشهر لا أكثر. تجمع أولئك في قاعة الطعام والحانات، يستمعون إلى ما هو مروع من الأخبار الواردة من جبهتـي القتال المشتعلتين، ليبدؤوا في التساؤل عمـا إذا كان بمقدورهم مغادرة الفقاعة في أي من الأوقات.

أخذ بعضهم، علاوة على ذلك، في التشكيك في طريقة إدارة العراق خارج أسوار المنطقة الخضراء. وسم القصور في الرؤية، في نظرهم، الهجوم على الصدر، بينما كان عناصـر المارينز يهاجمـون الفلوجة. خاطبني أحد مسؤولـي السلطة البارزين، بذلـك الصدد، قائـلاً: «هل كنا مضطريـن إلى ملاحقته في تلـك اللحظة؟ كان من الواجب تأجيل ذلك. مثّل التعامل مع المشكلتين، في الوقت ذاته، ضرباً من الجنون، إن لم يكن انتحاراً».

اصطدم بوش وبريمر بجبهة جديـدة للمعارضة، مع تسليـط التقارير الإخبارية الضـوء علـى الخسائر المتزايـدة بين صفـوف المدنيين في الفلوجـة. هاتف رئيس الـوزراء البريطاني توني بلير الرئيس بوش، في السابع من نيسان/ أبريل، للاحتجاج على هجوم المارينز. هدد ثلاثة من الأعضاء البارزين السنة في مجلس الحكم بريمر،

عـلاوة على ذلك، بالاستقالة إن لم تتوقف العمليـات العسكرية، ناهيك عن الأخضر الإبراهيمـي. انتقـد الأخير، السني، بشدة، في أحد المؤتمـرات الصحفية، الطريقة التي كان الأمريكيون يتعاملون بها مع الفلوجة، داعياً إياها «بالعقاب الجماعي».

حث بريمـر، المتخوف من انهيار خطة سلطة الائتلاف بشـأن التحول السياسي، البيت الأبيض على قبول وقف لإطلاق النار؛ بغية السماح للساسة السنة بالتفاوض مع زعمـاء المدينة بشأن اتفاق سلمي. أيد بوب بلاكويل، الذي كان في واشنطن، الطرح ذاته، لعدم رغبته في استقالة الإبراهيمي.

وجهـت الأوامر إلى قوات المارينز، في الثامن من نيسان/ أبريل، بوقف العمليات الهجوميـة، بحلول ظهيرة اليـوم الثاني، ليعتري الغضب الجنـرال كونوي ومساعديه بالنتيجة. عارض الأخيرون، في بداية المطاف، قرار الرئيس بوش بشن هجوم شامل على الفلوجة، ولكنهم رغبوا في إنهاء المهمة التي بدؤوها. كانت وحدات المارينز قد اقتربت بالفعل من مركز المدينة. أشارت تقديرات مساعد كونوي؛ الجنرال جايمس ماتيس، بذلك الصدد، إلى إمكانية استيلاء عناصر المارينز على الفلوجة في غضون يوميـن إضافيين مـن القتال. خاطبني كونوي، بذلك الصـدد، في وقت لاحق، قائلا: «يتعيـن عليك -حيـن تأمر عناصر فرقة للمارينز بمهاجمـة إحدى المدن- أن تدرك مـا سينتـج عن ذلك من عواقب، وألا تتردد في أثنـاء القيام به. يتعين عليك أن تبقى ملتزماً بالأمر، ما إن تقرر الالتزام به في المقام الأول».

سعت سلطة الائتلاف المؤقتة، وقوات المارينز، وشخصيات من مجلس الحكم إلى عقد اتفاق مع زعماء المدينة لتسليم قتلة المتعهدين. لجأ كونوي -عقب أسبوعين من المحادثات العقيمة- إلى ضباط سابقين في جيش صدام. التقى كونوي، بالتعاون مع السي آي أيه، رئيس الاستخبارات العراقية، محمد عبد الله الشهواني، الذي عمل على تعريف قائد المارينز إلى عدد من جنرالات الجيش العراقي السابق. عرض الأخيرون تشكيـل قوة مؤلفـة مما يزيد عن الألف من الجنود السابقيـن المنتمين إلى الفلوجة؛ بغية السيطرة على المدينة ومحاربـة المتمردين، شريطة تعهد المارينز بالانسحاب منها، وهو ما أقره كونوي.

مثّل سلوك القوة العراقية، المسماة فرقة الفلوجة، كارثة حقيقية في نظر الأمريكيين. ارتدى عناصرها بزات الجيش العراقي السابق، عوضاً عن تلك التي وفرتها قوات المارينز، ناهيك عن إدارة نقاط تفتيش مرورية على الطرق المؤدية إلى المدينة، لا أكثر، بدلاً من مواجهة المتمردين، لينتهي ذلك بعد بضعة أسابيع. انتهى المطاف بثماني مئة من البنادق الهجومية، وسبع وعشرين من العربات، وخمسين من أجهزة اللاسلكي، المقدمة من قوات المارينز إلى الفرقة، بالوقوع في أيدي المتمردين.

هدأت حدة الغضب الناتج عن هجوم المارينز في مناطق أخرى من العراق، ليتمكن متمردو الفلوجة، مع ذلك، من الانتقال إلى سامراء، والرمادي، وبيجي، وغيرها من المدن ذات الغالبية السنية، حيث عملوا على تجنيد العديد من الشباب المتحمسين. لم تكن الفلوجة وحدها من خرجت عن نطاق سيطرة الأمريكيين، بما يخالف التوقعات، بل معظم مدن وسط العراق الخاضعة للهيمنة السنية. توقفت مشروعات إعادة الإعمار، وبرامج تشجيع الديموقراطية، عن العمل في تلك المناطق، لتلغى بمجملها في نهاية المطاف.

سُمِحَ لموظفي سلطة الائتلاف المؤقتة والمتعهدين الأمريكيين، بعد مرحلة من الزمن، بمغادرة المنطقة الخضراء مجدداً في أثناء النهار، بما لا يشمل السفر خارج بغداد، اللهم إلا بواسطة المروحيات العسكرية. شجعت القيود المفروضة على السفر، وهجمات المتمردين اليومية - التي ازدادت من العشر إلى ما يفوق الخمس والسبعين، على وجه التقريب - موظفي السلطة على تأمل الذات في قاعة الطعام وحانات المنطقة الخضراء. انصرفت سلطة الائتلاف المؤقتة نحو التركيز على صغائر الأمور، مثل عدد ما يرخص من البنوك الأجنبية، ناهيك عما يُضمن قانون النشر الجديد، وضرورة تشكيل المحاكم المرورية.

خاطبني أحد معاوني بريمر، في أواخر أيار/ مايو، بما لا يخلو من الأسى، قائلاً: «شغلنا بمحاولة بناء ديموقراطية جيفرسونية واقتصاد رأسمالي، بما جعلنا نهمل الصورة الأشمل. أضعنا فرصة هائلة، ولم ندرك ذلك إلى أن انفجر كل شيء في وجوهنا».

المنطقة الخضراء، المشهد الثالث عشر

تجمع موظفو السلطة قبالة بركة سباحة القصر، قبل بضعة أسابيع من تسليم السيادة، في حفل شواء وداعي. كان الجميع حاضرين، باستثناء العراقيين العاملين في القصر. لم يخبرهم أحد بضرورة البقاء بعيداً، ليفعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم.

وفرت هاليبرتون الهوت دوغ، وشطائر البرغر، والدجاج المشوي، والذرة، ليعمل الندل الهنود والباكستانيون المتهندمون، العاملون في قاعة الطعام، على تقديمها، بينما تكفلت بلاك ووتر، الشركة الأمنية الخاصة، الحائزة على العقد المربح فيما يتعلق بحماية الحاكم، بتوفير أنواع المشروبات المختلفة.

تجاهل الضباط العسكريون، لأجل المناسبة، الأمر المتعلق بمنع المجندين من شرب الكحول. ثمل بعض صغار السن منهم، من ثمّ، ليجدوا أنفسهم في بركة السباحة.

بدت المناسبة مثل حفلة تخرج جامعية، وقد مثّلت فرصة الوداع الأخيرة، ناهيك عن تبادل عناوين البريد الإلكترونية، والتقاط الصور الجماعية. نظر بعضهم بعين الأسى إلى مرحلة خدمتهم في بغداد، بينما ضحك الآخرون وربتوا على ظهور بعضهم بعضاً، مؤمنين بإنجازهم ما هو عظيم من الأعمال، وتحليهم بصفات البطولة الحقيقية.

تحدث الجميع عن عطلاتهم الصيفية والتئام شمل عائلاتهم. خطط بعضهم للعودة إلى وظائفهم السابقة، بينما رغب الآخرون في العمل ضمن حملة بوش - تشيني الانتخابية.

لمحت المسؤولة الصحفية في السلطة، بعد مضي ما يقارب الساعة، صحفيين ضمن الحضور. أنحت بهما جانباً، قبل أن تصرخ قائلة: «من دعاكما إلى هنا؟ ما الذي تفعلانه هنا؟، لا يسمح للصحفيين بالحضور».

أجابها الصحفيان قائلين: إنهما دعيا من قبل أحد موظفي السلطة، لتطلب منهما الانتظار ريثما تتشاور مع رئيسها. عادت المسؤولة بعد بضع دقائق، تحمل إحدى

كاميـرات الفيديو. كان من شأن طردهما إثـارة الانتباه، والخروج بقصص صحافية فضائحيـة. حسم الأمر، فـي نهاية المطاف، ببقاء الصحافييـن، شريطة تعهدهما، أمام عدسة الكاميرا، بعدم كتابة شيء عن الحفلة.

انضـم بريمر والجنرال سانشيز، بعد وقت قصيـر، إلى الحفلة. رغب الجميع في التقاط الصور مع الرجلين، ليبلغ الأمر ببعضهم طلب الحصول على توقيعهما.

وضعـت الخطـط لتمثيل مسرحيـات هزلية قصيـرة، وعزف بعض المقطوعات الموسيقيـة. أعد أحد العازفين على الغيتار، من موظفـي السلطة، مقطعاً هزلياً عن بريمر، ليمنعه مسؤولون بارزون في السلطة من تقديمه.

تقـدم بريمـر نحو منصة صغيـرة، ما إن ملأ الحضـور المكان؛ بغيـة إلقاء كلمة وداعيـة. تحـدث الرجل، في ذلك السياق، قائلاً: «سيستذكـر العالم سلطة الائتلاف المؤقتة، ويقر بما فعلنا».

أردف بريمر قائلاً: «جعلنا من العراق مكاناً أفضل»، ليقابله الحضور بالتصفيق، ويذرف دمعة من عينيه.

قـرأ السفيـر البريطاني، فيما بعـد، رسالة تهنئة من توني بليـر، قبل أن تعرض رسالة مسجلة مقتضبة للرئيس بوش، على شاشة عملاقة، يكيل فيها المديح لسلطة الائتلاف المؤقتة.

تحـدث بوش، فـي الرسالـة، قائلاً: «شكـراً لكم وليباركم الـرب. استمتعوا بحفلة شوائكم!».